المساجد والجوامع

في أول الفتح

المسجد (بكسر الجيم) البيت الذي يسجد فيه وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد. ويقال: مسجد الجامع والمسجد الجامع؛ أي مسجد اليوم جامع. فالمسجد قد يكون صغير المساحة والحجم، والجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع والأعياد. وأول المساجد التي بنيت في الشام على ما يظهر كانت في البلدان التي سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل: مؤتة والجرباء وأذرح وفحل وأجنادين وبُصرى.

ولما كانت السذاجة في كل شيء قد غلبت على العرب لأول عهدهم بالإسلام كانت مصانعهم بحسب الحاجة، وإذا كان من الواجب إذا اجتمع بضعة أفراد منهم أن يقيموا الصلاة جماعة لم تلبث المساجد أن كثرت في الشام في المدن والقرى. وكان الفاتحون يصالحون الأهلين إما على النصف من كنائسهم أو على بعضها أو يكتفون بواحدة أو بنصف واحدة كما اكتفوا بكنيسة مار يوحنا من أصل خمس عشرة كنيسة في دمشق وضاحيتها. وأعطى أبو عبيدة أهل بعلبك وأهل الرستن الأمان على كنائسهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد في الرستن. وصالح الفاتح أهل حمص على ربع كنيستهم للمسجد وظلت كذلك إلى القرن الرابع وبعض بيعها المسجد الجامع وشطرها للنصارى وبيعتهم من أعظم بيع الشام. وترك الفاتحون لأهل اللاذقية كنيستهم وبنوا مسجدًا جامعًا لصلاتهم ثم وسعوه.

بقيت المساجد على حالة ابتدائية حتى تولى معاوية أمر الشام، وكان بعيد النظر في العمران، فسمت به همته إلى أن يخرج المساجد من دور التأسيس ويدخلها في مظهر مدني فيه الجلال والجمال. ولم يزل بعثمان حتى أذن له أن يبني المساجد ويكبر ما كان ابتني منها قبل خلافته. وهكذا بدأ التوسع في المساجد والجوامع عقيب استقرار الفتح ورسوخ أقدام بني أمية.

واختط سليمان بن عبد الملك لما ولي جند فلسطين مدينة الرملة واختط المسجد وبناه فولي الخلافة قبل استتمامه، ثم بني فيه بعدُ في خلافته ثم أتمه عمر بن عبد العزيز ونقص من الخطة وقال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه. ومعنى هذا أن جوامع القوم ومساجدهم كانت بحسب حاجة من ينزل في كل صقع من المسلمين والتوسع لم يبد إلا مع معاوية بن أبي سفيان وأخلافه.

عرضنا في فصل المصانع لوصف المسجدين الجامعين في هذه الديار المسجد الأقصى وجامع دمشق. ونحن الآن تعرض لغيرهما من المساجد نذكر المهم منها في الحواضر على الأكثر، ونقابل بين قديمها وحديثها، وبديهي أن المساجد لقيت من المصائب السماوية والأرضية ما لقي غيرها من المصانع والعاديات. فإن الزلازل قد نسفت في الإسلام مدنًا برمتها فقد تقطع الجبل الأقرع فمات أهل اللاذقية سنة (٢٤٢هـ) وخرجت طرابلس منه، وفي هذا الزلزال خرب معظم الساحل وزلزلة سنة (٤٦٠) خربت فلسطين وزلزال سنة (٥٥٢) خربت به أمهات المدن الشامية، وهكذا يقال في معظم الزلازل التي وقعت بعد إلى القرن الماضي ومن أهمها زلزال سنة (١١٧٣) حتى إن من المدن ما لم يبق فيه جدار قائم ولا إنسان سائر. ومساجد الساحل أُصيبت في الحروب الصليبية بما نسفها أو

غير معالمها فأصبحت كنائس، ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أُعيدت بعض البيع أيضًا مساجد.

ومن المتعذر أن نعرف ما قام في كل عصر ومصر في الشام من المساجد والجوامع. ومن القرى اليوم ما كان فيه بالأمس عشرة مساجد والعمران يكثر ويقل بحسب حاجة الناس. والغالب أن العناية ببناء المساجد كان لغرض شريف للغاية بادئ بدء يراد به وجه المولى وثواب الآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين. فلما أوغل الناس في مضمار الحضارة كان من البانين من يجمعون بين الدين والدنيا إذا تعلقت هممهم أن ينشئوا لهم جوامع يقصدون بها تخليد ذكرهم ونيل الثواب والأجر. ثم أتت قرون وقد أخذ بعض الناس ولا سيما الحكام يعمرون المساجد ويقفون عليها حتى يحفظوا بحجتها بعض ثرواتهم لذراريهم، وفي هذه العصور الأخيرة وقع التخليط وكثرت المنافسة في إقامة المساجد والجوامع، حتى في الأماكن التي لا يحتاج فيها الناس إلى مساجد كثيرة إما لكثرتها أو لقلة المصلين في جوارها. وأشبهت دمشق القاهرة في عهد المماليك وبعدهم، فكانوا يعمرون الجامع قرب أخيه على أشبار قليلة منه. وما حدثت البانين أنفسهم أن يشترك في إقامة مسجد جامع بضعة من أهل الخير أو عشرات منهم؛ لأن المقصد الأول استحال في الآخر إلى إحراز شهرة، وإذا عمر إنسان جامعًا بالاشتراك مع غيره يضيع اسمه، وغايته أن يقال: بنى فلان مسجدًا، وهذا مسجد فلان، أو أن ينتفع هو أو أولاده بمغل وقف الجامع.

وكان للملوك والأمراء في كثرة المساجد وقلتها يد طولي ومنها أن الملك أو الأمير أو غيره من طبقات الحكام والولاة إذا آنس منه قومه رغبة في الاستكثار من المساجد والقربات جاروه على أفكاره وتقربوا إليه بمثل هذه الأعمال الصالحة، وربما تقاضاهم هو ذلك سرًّا حتى يستخرج

بذلك أموالهم وتوزع في الرعية فلا تجمد الثروة في يد واحدة. قال ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٤٤): لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه والطرب عمرت في أيامهم بولاق وبركة الرطلي وغيرها من الأماكن، وقدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين وأمثالهم من المغاني والملاهي إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة، والعفة عن المنكرات والفروج، وأخذ في مقت من يتعاطى مسكرات من أمرائه وأرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم وتصولح وتزهد، وصار كل واحد يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، فمنهم من صار يكثر من الحج، ومنهم من تاب وأقلع عما كان فيه، ومنهم من بنى المساجد، ولم يبق في دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة.

مساجد حلب

في حلب اليوم ١٦٩ جامعًا و١٨٢ مسجدًا ومنها الجيد بنيانه، وأعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا في غربي القلعة. صالح المسلمون أهل حلب على موضع المسجد يوم الفتح، وكان محله حديقة كنيسة الروم القديمة التي بنتها هيلانة أم قسطنطين. قالوا: إنه كان يضاهي جامع دمشق بالزخرفة والرخام والفسيفساء، وإن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق. وقيل: إن بانيه الوليد نفسه، وإن بني العباس نقضوا ما كان فيه من الرخام والآلات ونقلوه إلى جامع الأنبار في جملة ما نقضوا من آثار بني أمية بالشام. ولما جاء الروم حلب سنة (٣٥١) أحرقوا الجامع والبلد فرم بعضه سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة، وأحرقته الإسماعيلية سنة (٥٦٤) مع الأسواق التي حوله فعمره نور الدين زنكي وقطع الأعمدة الصفر من بُعادين ونقل إليه عمد مسجد قنسرين، وأحرقه من الأرمن سنة (٦٧٩) أيام

كانوا محالفين للتتر. وعمره قراسنقر سنة (٦٨٤) وبنى فيه غيره بعض جهات منه مثل الأمير ألطون بغا الصالحي نائب حلب والأمير يشبك اليوسفي.

ويقول العارفون بالآثار: إن بناء الجامع الحالي قد قام على الصورة التي عملت عليه زمن سابق بن محمود من بني مرداس (٤٦٨-٤٧٢) على يد القاضي ابن الخشاب وإن في أسفل المنارة كتابة تاريخها سنة (٤٨٣) ذكر فيها اسم ملكشاه وابن الخشاب، وفي جهة أخرى ذكر اسم تتش أخو ملك شاه ويستدل من مجموع البناء، وليس في جدرانه من كتابة مزبورة، أن هذا الطراز قديم صبر على الدهر. ومحرابه من عهد قلاوون والمنبر من عهد الناصر محمد، ويرد عهد الباب الأوسط للحرم إلى أوائل زمن المماليك وإن كانت فيه كتابات أحدث من عهد السلطان مراد الثالث (٩٩٦). وأسس المنارة المربعة ذات الخمس طبقات القاضي ابن الخشاب سنة (٤٨٢) وهي منقوشة أبدع نقش وهي بما كتب عليها من الكتابات الكوفية والنسخية المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية. قال أبو الفداء: وكان بحلب بين نار قديم ثم صار أتون حمام فأخذ ابن الخشاب حجارته وعمر منارة جامع حلب.

وصف ابن جبير في القرن السادس جامع حلب بقوله: وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها وقد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبوابًا قصرية الحسن إلى الصحن عددها ينيف عن الخمسين بابًا، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، وفي صحنه بئران معينتان، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح. وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبرًا على شكله، وغرابة صنعته، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسنًا على تلك الصنعة الغريبة، وارتفع كالتاج

العظيم على المحراب، وعلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف اهـ.

هذا وصف المسجد الجامع وما كان فيه وليس هو بالعظيم كمسجد دمشق أو المسجد الأقصى، وقد رمم في أوقات مختلفة. وفي حلب جامع الصالحين جنوبي المدينة أنشئ سنة (٤٧٩) أنشأه أحمد بن ملكشاه ومحرابه مهم في بابه. وأول جامع بني بحلب فيما قالوا بعد الجامع الكبير جامع ألطون بغا الصالحي تم سنة (٧٢٣) وفيه يقول ابن حبيب:

في حلب دار القرى جامعٌ ... أنشأه ألطنبغا الصالحي
رحب الذرى يبدو لمن أمه ... لطف معاني حسنة الواضح
مرتفع الرايات يروي الظما ... من مائه السارب والسارح
يهدي المصلي في ظلام الدجى ... من نوره اللامع واللائح
من حوله روض يرى للورى ... من زهرة بالفائق الفائح
لله بانيه الذي خصه ... بالروح للغادي وللرائح

وعدَّ ابن الشحنة من أحسن الجوامع التي بنيت على أجمل الوجوه جامع منكلي بغا الشمسي نائب حلب عمر (٧٧٨). وعد ابن شداد في باطن حلب مائتي مسجد وسبعة عشر مسجدًا داخل سور البلد منها ما نسبه لمنشئه ومنها ما عرفه بالخطة التي هو فيها. وذكر المساجد التي بأرباض حلب وذكر منها ما هو بالحاضر السليماني مائة مسجد وعشرة مساجد، وذكر مساجد الرابية وجورة جغال فعدها مائة وثمانية وستين مسجدًا وأتى على ذكر المساجد التي بالظاهرية فعدها تسعة وتسعين

مسجدًا وعد بالرمادة أربعة وثلاثين مسجدًا. وعد ببانقوسا ثلاثة عشر مسجدًا وبالفرافرة اثني عشر مسجدًا وبالمضيق ستة عشر مسجدًا وبالقلعة عشرة مساجد. قال ابن الشحنة وعنه لخصنا إحصاء ابن شداد لمساجد حلب: فجملة هذه المساجد التي داخل حلب وخارجها إلى حين تأليف ابن شداد كتابه سبعمائة وخمسة وعشرون مسجدًا. وقد بنى بعض الولاة الأول في الدولة العثمانية جوامع في حلب منهم جامع خسرو باشا (٩٣٨) وجامع عادلي محمد باشا (٩٥٧) وجامع بهرام باشا (٩٨٨) وابشير مصطفى باشا (١٠٦١) وجامع عثمان باشا (١١٥٠). ومن جوامع حلب التي بقيت عليها بعض الكتابات الحثية جامع القيقان، ومن جوامعها الأطروش واشتهر بكتاباته ونقوشه جامع البيادة في شمالي غربي القلعة.

جوامع عمالة حلب

قامت في أنحاء حلب مساجد كثيرة، ومنها مساجد قنسرين وهو البلد القديم الذي كان في الإسلام بمثابة حلب فخرَّبه سيف الدولة سنة (٣٥١) أو (٣٥٥) وأحرق مساجده، لما نزل الروم حلب وقتلوا جميع من كان بربضها وذلك خوفًا من سقوطها في أيدي أعدائه. وأنشئت في أنطاكية عدة جوامع بقيت منها بقايا على ما انتابها من الزلازل وأهمها اليوم جامع حبيب النجّار والجامع الكبير والشيخ علي والذخرية. وفي أنطاكية لعهدنا ١٣ جامعًا و٢٧ مسجدًا ومجموع ما في عملها ١٣٥ مسجدًا وجامعًا وزاويةً وتكية. وأُنشئت منذ الفتح جوامع في مدينة المعرة وصف ناصر خسرو في أواخر منتصف القرن الخامس جامعها الأعظم فقال: إنه مبنى على أكمة قامت وسط المدينة، ومن أي جهة اتجهت إلى هذا الجامع كان عليك أن ترتقي سلمًا ذات ثلاث عشرة درجة. وقد خربت المعرة بدخول الصليبيين، ثم عادت إليها بعض حياتها وفيها اليوم ٢٣ جامعًا ومسجدًا أهمها الجامع العمري الكبير تقام فيه الجمعة دون غيره من المساجد.

ومجموع ما في عمل ٤١ مسجدًا وجامعًا، وفي عمل جيل سمعان اليوم ١٨٣ جامعًا ومسجدًا، وفي بيلان ٥ مساجد وجوامع، وفي قضاء إدلب ٣٧ مسجدًا وجامعًا وجامعها في القصبة من عهد الفتح يسمونه العمري، وفي معرة مصرين وعملها ١١ جامعًا ومسجدًا، وفي حارم جامع ومسجد وفي عملها عدة جوامع ومساجد وكذلك في أعزاز، وفي قضاء الباب ١٥ جامعًا ومسجدًا وفي بزاعة وجسر الشغر ومعرة وصرين وسرمين وجبرين وسلقين وخناصرة والفوعة وأرمناز وديركوش والجبول والأثاب ودانيث وكلز وغيرها من البلدان القديمة مساجد وجوامع. ولا تكاد تخلو في يومنا هذا كل قرية من مسجد إلا كانت مزرعة حقيرة لأحد أرباب الأملاك. وفي الشغر اليوم ثلاثة جوامع وخمسة مساجد، ولا تخلو المدينة التي كانت عامرة جدًا ثم خربت عن آخرها مثل بالس (مسكنة) ومنبج مثلًا من مساجد لا بأس بها.

ولقد تقلبت الأيام بهذه المساجد والجوامع فكثرت في الأماكن التي اشتدت إليها الحاجة وقلت حيث قل العمران وابذَعَرّ السكان. فقد كانت سرمين مثلًا على طرف جبل السماق من المدن ولها مساجد كثيرة روى ابن شداد أن عددها كان ينيف على ثلاثمائة مسجد، قال: وليس بها الآن أي في عهده مسجد يصلى فيه غير الجامع وأكثر أهلها إسماعيلية ولهم بها دار دعوة، وسواء كان هذا العدد مبالغًا فيه أو غير مبالغ فالمحقق أن الجوامع والمساجد كثرت في الأعصر السالفة في هذه الأرجاء بكثرة السكان وتوفر خيرات الأرض، ثم لما خربت المدن دع القرى تراجع أمر بيوت العبادة.

ومن الجوامع القديمة في هذا الصقع جامع اعزاز عرف بالجامع الكبير قال الغزي: وهو صحن واسع فسيح في شماليه رواق وفيه مئذنة ضخمة وفي وسطه حوض يهبط إليه بدركات تجري فيه قناة جرها إليه

إسماعيل بن عبد الله العزازي المتوفى سنة (٧٤٨) وفي جنوبي صحن الجامع قبيلة يبلغ طولها نحو ٥٠ في عرض ١٥ ذراعًا سقفها قباب محمولة على أعمدة ضخمة وقد كتب على باب الجامع المتجه إلى الغرب: بسم الله الرحمن الرحيم في سنة (٦٤٤) أمر بعمله مولانا السلطان العالم العادل الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن عبد الملك الظاهر غازي ابن أيوب ناصر أمير المؤمنين خلد الله ملكه.

مساجد الساحل وجوامعه

لما كانت مدن الساحل معرضة لهجمات الأعداء كل حين، وكانت الزلازل قد نولت عليها كثيرًا وظلت مرسحًا للجيوش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع والمساجد فيها ما أصاب غيرها من العمائر، فليس في الإسكندرونة اليوم سوى جامعتين وفي عمالتها بعض المساجد الحقيرة، وكذلك الحال في السويدية واللاذقية والمرقب وطرطوس وجبلة وبانياس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة، خربت جوامعها ومساجدها وعمرت غير مرة في الإسلام؛ ففي اللاذقية اليوم عدة مساجد وفيها جامع جميل مطل عليها من الهضبة المطلة على الثغر ولها منارة جميلة. وأهم جوامع اللاذقية جامع المغربي، ومن جوامعهم جامع الجديد والكبير المنصوري وأرسلان باشا والصليبة وصوفان والشيخ ضاهر وجامع الاسكلة والشواف والصغير، وفي اللاذقية اثنا عسر مسجدًا غير هذه الجوامع. وفي جبلة جامعان؛ وهما جامع السيد إبراهيم والمنصوري، ومن مساجدها القنطاري وبني علي أديب والغزالي والأكراد وجامع واحد في بانياس، وفي طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة كاتدرائية، وفي صافيتا جامع وثلاثة مساجد في جوارها.

وفي طرابلس[1] عدة جوامع ومساجد ومعظمها من آثار المماليك البحرية والجراكسة، وما تجدد بعدهم فقليل جدًا بالنسبة لآثارهم في هذه المدينة، وأكثرها لم يذكر عليه اسم بانيه. ولا ريب أن البواعث كانت دينية محضة ورغبة في ثواب الله بدار الآخرة فكان عدم ذكر الباني على البناء أبعد عن السمعة والرياء، وكان الأمير أو المتمول منهم إذا شيد مسجدًا للصلاة جعل في أحد أطرافه مشهدًا ليدفن فيه عند موته، ولم يزل إلى الآن كثير من قبور المماليك الرخام محفوظًا في المساجد التي أقاموا على الطراز المخصوص بهم كأن يجعلوا في كل زاوية من زوايا القبر قاعدة بارتفاع ثلاثين سانتيمًا وأعلاها كروي. وللمماليك من نوع هذه القبور في دمشق صنوف. وإن ما بقي إلى اليوم من الفسيفساء في محاريب تلك المساجد وجدرانها آية في الإبداع وحسن الصناعة.

ومن أعظم جوامع هذا الثغر الجامع الكبير بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفي على ما يرى في الكتابة المحفورة فوق باب الجامع الشمالي وذلك في سنة (٦٩٣هـ) وكان متولي العمارة سالم الصهيوني ابن ناصر الدين العجمي، وفي سنة (٧١٥) وعلى عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة بنيت بأمره الأروقة المحيطة بصحن المسجد أيام نيابة المقر السيفي كستاني الناصري وكان متولي العمارة أحمد بن حسن الحرلبعليلي وتسميه أهالي طرابلس الجامع المنصوري، وهو غلط بين؛ لأن الملك المنصور قلاوون هو أبو الأشرفي باني الجامع المذكور.

ومنها جامع طينال وتسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال مملوك محمد الناصري وحاجبه، وكان قد تولى ولاية طرابلس مرتين وبنى الجامع المذكور للمرة الثانية سنة (٧٣٦). وفي منارته هندسة لطيفة

(١) كتب وصف جوامع طرابلس السيد محمد كامل بابا.

ولها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر، فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعدًا أعلاها وإذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد، وعلى هذه الصورة فباب المنارة السفلي الخارجي أدنى من أرض المسجد بقدر قامة الإنسان.

ومن جوامعها جامع أرغون شاه وتسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الآخذة لجبانة باب الرمل ولا يعلم تاريخ بناه وفوق بابه كتابة حفرت أيام قايتباي من المماليك الجراكسة سنة (٨٨٠) يأمر فيها بحماية زراع أراضي الوقف للجامع المذكور وتسليمها إلى محمود الأدهمي الحسيني، وقد بني هذا الجامع حديثًا بعد سقوطه ووضعت له القساطل الحديدية لجر المياه.

ومن جوامعها جامع التوبة وهو ملاصق للجسر الجديد على نهر أبي علي، ومن الثابت أنه بني أيام دولة المماليك وطراز هندسته يشبه الجامع الكبير من وجوه كثيرة وقد جدد بناءه بعدما تهدم من الفيضان الكبير الذي وقع في طرابلس سنة (١٠٢٠) أحمد بن محمد الشربداري الأنصاري كتخداي حسين باشا السيفي، وتمَّ بناؤه في شهر ربيع الآخر سنة (١٠٢١) والكتابات الأثرية التي عليه يرجع تاريخها إلى سنة (٨١٧) أيام دولة المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي من المماليك الجراكسة.

ومن جوامعها جامع المعلق بناه محمود بن لطفي الزعيم سنة (٩٦٧) أيام سليمان القانوني وهو في محلة بوابة الحدادين. وجامع العطار وسط البلد بقرب محلة الملاحة والمشهور عند أهالي طرابلس أنه كان كنيسة في زمن الصليبيين، ثم تحول إلى جامع بعد الفتح الإسلامي وكان قد تداعى بناؤه، فأقيم وفي أعلى بابه الشرقي مكتوب هذا التاريخ «البسملة.

هذا الباب المبارك والمنبر من عمل المعلم محمد بن إبراهيم المهندس في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة». وجامع البرطاسي في جانب الجسر العتيق على نهر أبي علي وفي الكتابة التي فوق بابه يقول: بني هذه المدرسة عيسى بن عمر البرطاسي ووقفها على المشتغلين بطلب العلم على مذهب الإمام الشافعي ولم يعلم الزمان الذي تحولت فيه إلى جامع، وقد ذهب من أصل الكتابة التاريخية القسم الذي يذكر به زمن البناء غير أن أسلوب تلك الكتابة وطرز بنائه الفخم ودقة الفسيفساء التي على محاربه وفي أرضه تدل على أن بانيه من الأثرياء أيام دولة المماليك البحرية. وجامع الأويسية بني في دولة المماليك غير أنه لم يكن عليه كتابات تاريخية إلا ما كان في أعلى منارته وفيها ذكر أنه جَدد بناءها أيام السلطان سليمان القانوني سنة (٩٤١) رجل اسمه حيدرة، وفي وقفية الجامع أن اسم بانيه محيي الدين الأويسي.

وجامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة بناه عبد الواحد المغربي المكناسي أيام السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة سنة (٧٠٥) وعليه زبرت كتابة تشعر بذلك. وجامع التفاحي يسمى اليوم بالحميدي لم يبق من بنائه الأصلي أثر وتجدد بناؤه حوالي سنة (١٣١٠) بمعاونة أهل الخير وإعانة السلطان عبد الحميد الثاني فنسب إليه. وجامع محمود بك السنجق وهذا بناه في طرف البلد تقريبًا للجهة الشرقية بالمحلة المعروفة بباب التبانة سنة (١٠٢٠) في عهد السلطان أحمد من ملوك بني عثمان ووقف عليه أوقافًا كثيرة لم تزل قائمة إلى الآن. وجامع الطحام داخل البلد ولم يعلم اسم بانيه ولا تاريخ بنائه وشكله وطرز منارته يدل على أنه بني زمن المماليك.

هذه جوامع طرابلس وقد وصف ناصر خسرو المسجد الأعظم فيها أواخر النصف الأول من القرن الخامس بقوله: والمسجد الأعظم قائم في

وسط المدينة وهو جميل للغاية، مزدان بأحسن زينة، ومبني على غاية القوة والمتانة، وفي صحنه قبة عظيمة تعلو حوضًا من المرمر في وسطه فوارة يخرج ماؤها من منقار نحاس أصفر اهـ. والغالب أن هذا الجامع خرب بخراب تلك المدينة بعد.

وفي جبيل جامع قديم هو مما اتخذ جامعًا بعد الحروب الصليبية. أما مدينة بيروت فكانت فيها جوامع صغيرة بعد الفتح ولم تكن بيروت بالثغر العظيم إذ ذاك ولم يكن للمسلمين جامع فيها أيام استيلاء الصليبيين عليها، فلما انتزعت منهم أخذوا كنيستهم وجعلوا جامعًا، وهي تعرف بكنيسة مار يو حنا الصايغ ويقال لها: جامع النبي يحيى أو الجامع الكبير اليوم. وبنى فيها الأمير منصور عساف جامع السراية. وكان جامع الخضر كنيسة للموارنة باسم مار جرجس إلى سنة (١٦٦١م) فأخذه أحد باشاوات الترك وجعله جامعًا. ومنها جامع المجيدية وغيره ومجموع ما في بيروت اليوم من المساجد والجوامع ثلاثون جامعًا ومسجدًا.

وفي صيدا سبعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير جامع يحيى وكان كنيسة على الغالب باسم مار يوحنا وفي صور مسجد جامع، وفي عكا بضعة جوامع أهمها جامع الجزار، وفي حيفا وعملها عدة جوامع ومساجد، وفي يافا وعملها كذلك وجوامع يافا قديمة في الجملة، وفي غزة اليوم عدة جوامع ومساجد. وقد أعجب الظاهري في القرن التاسع بجوامع غزة، وكان مسجدها الجامع من الكنائس المهمة في القرن الثاني عشر للميلاد على اسم القديس يوحنا المعمدان، وكان كاتدرائية لأسقف الروم، وفيها جامع هاشم وجامع باب الداروم وغيره من الجوامع التي فيها نقوش بديعة وأنقاض تدل على مجد قديم.

جوامع المدن الداخلية

وفي الخليل و(حبرون) جامع فيه مقام الخليل إبراهيم في مغارة تحت الأرض. قال شيخ الربوة: ومن المباني القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله ثمانون ذراعًا وعرضه خمسون ذراعًا، في الطول منه عشرون حجرًا مدماكًا واحدًا، وداخل المقام نصب على الضريح كل واحد حجر واحد، الطول أربعة أذرع والعرض ذراعان ونصف والسمك مثلها وأزيد. ويحتوي اليوم سور الخليل على أساس يبلغ علوه ١٢ مترًا وحجارته ملساء عليها مسحة الإمبراطور هيرودوس. وقد بنى هذا الجامع الصليبيون من سنة (١١٦٧) إلى (١١٨٧)، وربما كان إنشاؤه مكان كنيسة يوستنيانوس وجدده المسلمون بعد ذلك. وأقدم ما في الجامع من الترميمات ما قام به قلاوون من سلاطين المماليك.

وفي القدس عدا المسجد الأقصى ثمانية جوامع؛ وهي جامع عمر بن الخطاب تهدم ومكانه الآن كنيسة القديسة حنة شمال كنيسة مار يوحنا والجامع الباقي مع المئذنة من آثار قلاوون (قاله الأستاذ البرغوثي) وجامع عكاشة، وجامع سوق البيزار، وجامع سلمان الفارسي، وجامع الشيخ جراح، وجامع سويقة علوان، وجامع الخانقاه بالصلاحية قرب الكنيسة، وجامع باب خان الزيت. والجوانع الخربة أيضًا تسعة؛ وهي جامع بحارة الحدادين، وآخر قرب دير اللاتين وثالث قرب بطريركية دير اللاتين ورابع اسمه الحيات وخامس جامع اليعقوبي قرب اليعقوبي قرب القلعة، وجامع قرب دير الأرمن ومثله على مقربة من دير السريات وغيره في حارة اليهود وجامع الأزرق. وهناك ثلاثة جوامع معمورة أيضًا وهي: جامع البيل وجامع لؤلؤ وجامع أبي قصبة. وبعض هذه الجوامع لا شأن له من حيث النظافة والإتقان شأن المصليات البسيطة.

وفي الرملة عدة جوامع ومساجد قال ناصر خسرو في مسجدها الجامع: إن في وسطه صهاريج واسعة وإن مساحته ثلاثمائة قدم في مائتين. وقال الظاهري: إن من جملة مزارتها الجامع الأبيض عجيب من العجائب. وكان منارة من عجائب الدنيا بناها قلاوون. وفي لد عدة جوامع ومساجد وكان بها في القرن الرابع جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبة وما حولها من القرى وجامعها الكبير اليوم من عهد الصليبيين كان كنيسة. وفي نابلس تسعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير ومسجد أولاد يعقوب وجامع النصر والخضراء والجامع الكبير بناه يوستينانوس. وعلى قيد غلوة من أرسوف بقايا حرم سيدنا علي بن غليل أو عليم. وفي قاقون بني الملك الظاهر بيبرس جامعًا. والظاهر هذا جدَّد وبني عدة مساجد وجوامع في الشام ومثله قلاوون وتنكر من المماليك. وفي طور كرم وجينين عدة مساجد وجوامع أكثرها محدث.

ومن الجوامع التي رممها ديوان الأوقاف في فلسطين في العهد الأخير جامع المنشية والعجمي والبحر وأرشيد والطابية في يافا، وجامع العصا في الرملة،

وجامع لدّ، ومقام النبي يحيى في قرية المزيرعة ومقام النبي روبين وجامع سويقة علون وجامع باب خان الزيت والزاوية النقشبندية وجامع سعد وسعيد، وجامع بيت لحم ومقام النبي شموبل في القدس وأرباضها. ورمت الأوقاف في نابلس جامع النصر والجامع الكبير الصلاحي وجامع العين وجامع التينة، وجامع قرية رفيديا وقرية عقربة وقرية عصيرة الشمالية وقرية صيدا وجامع البئر في قرية زواتا وجامع سبطية وجامع قرية برقة. وأُجريت عدة إصلاحات في جامع الجزار في عكا، وأنشئ في حيفا جامع الاستقلال. وأصلحت الأوقاف الجامع الكبير في غزة أصابه خراب كبير بسبب معارك الحرب العامة «وهو من المساجد العظمى في فلسطين فخم

البناء كبير القيمة الأثرية جميل الشكل والهندسة يحتوي على عدة سلاسل من العقود الحجرية» وأصلح جامع سيدنا هاشم وجامع ابن عثمان وجامع المجدل وحرم سيدنا زكريا في الخليل، وشرع أهالي الخليل ينشئون مسجدًا فساعدهم المجلس الإسلامي الأعلى.

وكانت المدن القديمة غاصة بالجوامع مثل قيسارية وأرسوف فذهبت بذهاب عمرانها. وفي طبرية اليوم جامعان قديمان؛ الجامع الفوقاني من بناء عرب الزيادنة عام (١١٥٦) والثاني جدد بناؤه عام (١٢٨٠). وفي صفد عدة جوامع ومساجد. وفي قلعة الشقيف بني الظاهر بيبرس جامعًا وكانوا يقيمون الصلوات في القلاع أيضًا، كما بنوا جوامع لهم في قلعة دمشق وفي قلعة حلب.

وفي صرخد عمر الظاهر بيبرس جامعًا، وكذلك فعل في بصرى وعجلون والصلت، وفي هذه البلدان اليوم مساجد صغيرة فقد قضت الأيام على المساجد المهمة. وفي عمان جامع ومسجد وكان فيه في القرن السابع «جامع ظريف في طرف السوق مسقف الصحن شبه مكة». وقد أنشئ فيها في العهد الحديث جامع فخم.

وللدروز في الشوف من لبنان ووادي التيم الأعلى والأسفل ومرجعيون وصفد وضواحي دمشق وبيروت والجبل الأعلى وفي بعض قرى عكا خلوات أشبه بالمساجد لا منابر لها ولا مآذن، ويجتمع فيها خاصتهم ليلة الجمعة ويسمونها مجالس، كما أن للنصيرية (العلويين) في جبالهم خلوات صغيرة ذات قباب تكون على الغالب في أطراف قراهم، وكذلك لا تخلو أكثر قرى المتاولة (الشيعة) في جبل عامل من مساجد صغيرة لهم لا مآذن لها ولا منابر، ومنها ما يسمونه «حسينية» نسبة للحسين بن علي رضي الله عنهما يقيمون فيها المآتم عليه في أوقات لهم

مخصوصة. وفي بعلبك عدة جوامع ومساجدها بقي بعضها من عهد عزها، أيام غلبة مذهب أهل السنة والجماعة على سكانها أكثر من التشييع. وللإسماعيلية مجالس أيضًا كما للنصيرية.

ولقد زيَّن بعض عمال السلطنة العثمانية للسلطان عبد الحميد الثاني أن يبني جوامع ومساجد في جبال النصيرية وجبل الدروز عسى أن يثوب أهلها إلى مذهب أهل السنة والجماعة، بنيت عدة جوامع في هاتين المقاطعتين، منها أربعون جامعًا في جبال العلويين على أمل أن يعود النصيرية والدروز إلى التسنن، فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين، فلما آنسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة أتى جهلاء النصيريين والدروز على ما بني من مساجد الجديدة ودمرها عن آخرها ودنسوا كرامتها بما لا يليق.

ومن الكتابات الأثرية في بعلبك ما زبر فوق باب قبة الأمجد على رابية الشيخ عبد الله {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر}. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الاسفسهلار الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ ابن عبد الله المعري الملكي الأمجدي، ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحساب، وفي سنة ست وتسعين وخمسمائة».

وكتب في جامع الحنابلة ببعلبك هذا: «بسم الله الرحمن الرحيم. جُدِّد هذا المكان المبارك في أيام مولانا السلطان الأعظم، شاهنشاه المعظم مالك رقاب الأمم، سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم، الملك المنصور سلطان الإسلام والمسلمين، قامع الكفرة والمشتركين، محيي العدل في العالمين، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، أبي المعالي قلاوون قسيم أمير المؤمنين، خلد الله سلطانه، وشد أزره ببقاء ولده وولي عهده، مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين، وأدام نصرهما، وجعل

البسيطة ملكهما، بتولي الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة ومدينتها، ونظر القاضي بهاء الدين بن خلكان، وذلك في العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ثنتين وثمانين وستمائة والحمد لله وحده».

والمساجد في لبنان قليلة جدًّا أنشئ بعضها حديثًا كجامع عالية، وأهم الجوامع في هذا الجبل جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعني وعهدي به والمسيحيون من أهل جواره يحافظون عليه؛ إذ ليس هناك من يصلي فيه من أهل الإسلام. وقد كتب على واجهته كتابتان هكذا بالخط العربي النسخي، الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم. {في بيوت أذن الله أن ترفع ويكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب}»، والثانية: «بسم الله الرحمن الرحيم: {في بيوت أذن الله ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار}. عمر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله العظيم ورجاءً لثوابه العميم العبد الفقير إلى عفو ربه القدير المقرّ الفخري الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس ابن معن غفر الله له.

وكتب في ٥ من شهر الله المحرم الحرام من شهور سنة تسع وتسعين وثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

وكانت الجوامع في حمص مهمة للغاية أوائل الإسلام وقد صالح المسلمون أهلها على ربع كنيستهم وكانت «على أربعة أركان وذلك من

عجائب بنيان العالم» ومسجدها اليوم وسط السوق وليس بالكبير وفيه عقود وعمد ومحراب مزين بالفسيفساء المذهبة القديمة. وفي جهة أخرى محراب قديم معمول بالفسيفساء أيضًا. وأكد الأثريون أن بناء هذا الجامع هو من بناء الكنيسة، والغالب أنه جدد في أدوار مختلفة من عهد نور الدين زنكي إلى زمن قريب. ولا تزال في حمص منارة مئذنة من بناء بكجور الذي استولى على المدينة سنة (٣٦٧) وعليها كتابة مفيدة في باب الهندسة العربية. ومن جوامع حمص المهمة جامع سيدنا خالد خارج البلد جدد بناؤه مؤخرًا، وأنشئت له مئذنة على الطرز الرومي. ولم يثبت كون المدفون في هذا الجامع هو خالد بن الوليد الفاتح؛ لأن هذا على أغلب الروايات مات في مدينة الرسول، والغالب أن هذا القبر هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية على ما أكد ياقوت قال: وهو الذي بنى القصر بحمص، وآثار هذا القصر في غربي الطريق باقية. وذكر المؤرخون أنه كان في جامع حمص عمود يقال: إنه من الكحل الأصفهاني.

وفي حماة ٣٤ جامعًا و١١ مسجدًا، ومن أهمها النوري بناه نور الدين زنكي سنة (٥٥٩). ومنها أبي الفداء الشهير بجامع الدهشة أو الحيات. وقد وصف الأثري هرزفلد المسجد الجامع في حماة وهو الجامع الكبير فقال: إنه أصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل وله ثلاثة أفنية مختلفة السعة، وثماني دعائم، وخمس قباب، ومن كل ناحية خمسة عقود أو أقبية. ويظهر أن الحائط الغربي كان حائط رواق الكنيسة، والحائط الجنوبي من العهد السابق للنصرانية، كما هو الحال في جامع دمشق كان معبدًا ثم بيعة ثم جامعًا. وإلى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة وهي مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس، وتحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة، وهناك سدة بمحرابين أمام الحرم وسدة أخرى لها حوض ماء، ومحراب منفرد في الرواق الشمالي،

وخزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة، وفي الرواق الشرقي تربة ومصلى ولها نوافذ صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك، ومن الرواق الغربي يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود الثالث (٦٨٣-٦٩٨) وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش، وهناك منارة ثانية قامت في الخارج وسط الرواق الشمالي ويستدل من كتابته وشكله أنه من زمن المماليك، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجليًا عظيمًا؛ وذلك أن ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بألوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم في صنعها بين الحجر البركاني الأسود والحجر الكلسي الأبيض.

وفي الجامع النوري على الشاطئ الأيسر من العاصي في أرض منحدرة وعلى بناء تحتي عال هذا الجامع على عهد نور الدين، وعلى ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم، ولا سيما على طول الحرم، والعقود فيه حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع، وكذلك ثلاث قباب من الرواق الشمالي مختلفة الأشكال والأبنية التحتانية من الجهتين الشرقية والشمالية والحائط الخارجي الشمالي من الجامع ربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد أيضًا. وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب ويرد إلى زمن نور الدين، ثم محراب مزين أجمل زينة له سوار من الخام المجزع من زمن الملك المظفر تقي الدين (٦٢٦-٦٤٢) وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو سوار من المرمر زُبر في تيجانها اسم أبي الفداء.

والجامع الأول هو الذي قام على أنقاض الكنيسة أو حول منها في زمن الفاتح، وهو جامع السوق الأعلى وجدّد خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه، ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه وبنى

مدرسة بجواره، ثم أتى إبراهيم الهاشمي فأنشأ منارته الشمالية سنة (٨٢٥) كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها، ومن بنائه الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ورواق الجامع أيضًا بناه سنة (٨٣٢)، وجامع الحيات أو جامع الدهشة الذي بناه الملك المؤيد وبنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعي ملتفة، ولهذا يسمى جامع الحيات. وقد نقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وأرضه وعمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق، غير أنهما هدما وأُدخلا في البساتين المجاور له، ولم يبق غير الشباكين. وذهبت خزانة الكتب الموقوفة وكان فيها سبعة آلاف مجلد. ويرى الداخل إلى حرمه حتى اليوم زنارًا على ساريتين محفورًا من الرخام وصورته:

«أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا والدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب في شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة».

ومن الجوامع في حماة جامع السلطان في محلة الدباغة وهو متسع، بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفداء على هيأة جامع الدهشة، وفي كل منهما رخام محفور بالآيات القرآنية كتبتها يد واحد، وله رواق كبير وفي محرابه كتبت آيات بالخط الكوفي. وفيها جامع العزة بناه محمد بن حمزة العزي سنة (٧٢٣) وهو مهجور. وفيها جوامع بناها بعض آل الكيلاني الذين سكنوا حماة منذ القرن السابع ولها أوقاف عظيمة دارة إلى اليوم. ومن الجوامع الحديثة جامع الحميدية ... إلخ.

جوامع العاصمة وضواحيها

إذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموي مفخرة دمشق على توالي الأيام والمعدود من المصانع العظيمة في العالم، وعمدنا إلى وصف بعض جوامع العاصمة ومساجدها نجد عدد المساجد في العهد الأخير بحسب إحصاء ديوان الأوقاف ثمانية وخمسين مسجدًا وجامعًا، منها جامع الباشورة في الشاغور ومسجد الجديد في مسجد الأقصاب وجامع الأتابكية في الجركسية بالصالحية وجامع حسان في القماحين بباب الجابية ودرويش باشا في الدرويشة (٩٨٢) واسمه القديم الاخصاصية وسعه درويش باشا، وجامع الدقاق في الميدان الفوقاني والركنية في الصالحية ومسجد رستم في العقيبة وزيد بن ثابت في باب السريجة وجامع السقيفة في العمارة وجامع سيدي بشارة في باب المصلى وجامع سيدي صهيب في الميدان التحتاني وجامع السنجقدار وشادي بك في القنوات والطاغوسية في البحصة والعداس في القنوات ومسجد العداس الصغير في العمارة، وجامع عبد الغني النابلسي في الصالحية، وجامع برسباي المعروف في الورد في سوق ساروجا (٨٥٢)، وجامع كافل سيباي في الدرويشية.

وفي هذا الإحصاء نظر لأن جوامع دمشق ومساجدها أكثر من ذلك، ولعل من مصلحة الأوقاف أن تقلل من عددها لكي يتسع لها المجال أكثر مما اتسع لاستصفاء وقوفها فقد فاتها في هذه الجريدة ذكر جامع السنانية عمره يوسف عبد الله سنان باشا سنة (٩٩٩) في محل مسجد البصل، وجامع يلبغا أُنشئ سنة (٨٤٧)، وجامع التوبة في العقيبة، وجامع الجراح في باب الصغير عمره الملك الأشرف موسى (٦٣١) وله منبر جميل مهم، وجامع الجديد وهو جامع المعلق بين الحواصل أجمل بناء في دمشق جدده نائب الشام سنة (١٠٥٨)، ويظن أن أصله من القرن السابع أو

السادس، وجامع الحنابلة في الجبل ويقال له: جامع المظفري أنشأه ابن قدامة المقدسي (٥٩٨) وأتمه الملك المظفر كوكبوري صاحب إربل وهو جامع جليل.

ومن الجوامع الجليلة جامع المرادية في السويقة له منبر ومحراب بديعان. ومنها جامع منجك في الميدان أنشأه الأمير إبراهيم بن سيف الدين منجك (٨٠٠). جامع النحاس شرقي الركنية في الصالحية في بستان النحاس عماد الدين بن عبد الله بن الحسين بن النحاس (٦٥٤). ومن الجوامع التاريخية التي لم تشتهر كثيرًا جامع الحشر في الجانب الغربي من القلعة لأرغون شاه جدده سنان جاووش يكيجري (١٠٠٨). الحيوطية للأمير علي بن حيوط (٨٨٥) العسالي لأحمد باشا كوجك (١٠٥٤) أنشأه أحمد بن علي العسالي شيخ الخلوتية جامع المزاز (٨١٣) لعزران شاه السيد تقي الدين الزينبي الجنوبي خرب في فتنة تيمور فجدده الطوش مرحاب. جامع الجوزة في العمارة وسعة القاضي ناظر الجيش (٨٣٠) جامع خليخان خارج باب كيسان من الجنوب أنشأه نجم الدين بن خليخان (٧٢٦) جامع الكريمي (٧٢٤) بالقبيبات أنشأه عبد الكريم بن هبة الله المصري. جامع باب المصلى أنشأه (٦٠٦) الملك العادل أبو بكر بن أيوب. وكان هذا السلطان مولعًا بالعمران أنشئت في عهده مسجد كثيرة في مملكته. جامع الحاجب في سوق ساروجا (٨٨٠) جامع السقيفة دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة فيما يقال أنشأه خليل الطوغاني (٨١٤)، وكان محله يعرف بالسبعة. وهناك مساجد دثرت لأنها ليس في جوارها من يتعدها مثل جامع الأحمر في حي اليهود والبهائية في باب توما.

وفي مفكرات طارق أن اسم سوق القطن القديم بدمشق سوق النسقار وفيه جامع هشام أنشأه القاضي بدر الدين بن مزهر (٨٣٠)، وأن محراب جامع التوبة مهم وكذلك منبره ونوافذه، ومثل ذلك جامع الشامية وجامع

التبان في المناخلية فإن فيه عمودين مهمين وفيه قاشاني ومنبر قديم وملاصق جامع السيدة سكينة جامع من بناء الملك الظاهر عليه كتابات، وفي جامع ركن الدين منكورش المعروف بالركنية في حي الأكراد نقوش وكتابات مهمة.

هذا غاية ما يقال في مساجد دمشق اليوم. وقد عدد ابن عبد الهادي القسم الأعظم من مساجدها في القرن العاشر مع أنه لم يستقص أسماء كثير من الجوامع في الضاحية بما يناهز خمسمائة قال: فناهيك ببلدة يحتوي واديها فقط على زهاء ألف وخمسمائة مسجد، وأما ما هو محيط بمعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية اهـ. وذيل على كتابة الدكتور أسعد طلس فأورد وصف ثلاثمائة وثمانية مساجد في دمشق زارها كلها وبحث في حاضرها وغابرها وبعضها من المساجد التي عرضنا لها في هذا الفصل وكان فات إدارة الأوقاف ذكرها في المساجد الباقية. قال كانت جلبي في القرن الحادي عشر: إن عدد جوامع دمشق بين كبير وصغير يبلغ مائة وخمسين جامعًا، وإن الدولة العثمانية أنشأت فيها عدة جوامع على طرز جوامع ديار الروم؛ فبنت جامع السلطان سليمان بين الشرفين الأعلى والأدني، وأنشأت جامع درويش باشا مير ميران ولاية الشام، وأنشأت جامع سنان باشا خارج باب الجابية وأنشأت جامع قره مراد باشا مير ميران ولاية الشام خارج السور فوق طريق الشام على سمت طريق باب المصلى اهـ.

وإذا توغلنا في التاريخ إلى القرن السادس نجد ابن عساكر قد عد من المساجد التي بنيت بدمشق ٢٤١ مسجدًا وجامعًا في داخلها و١٨٤ في ظاهرها مما ليس في قرية مسكونة أو معمورة. قال ابن شاكر: وقد أحدثت بعد الحافظ ابن عساكر مساجد كثيرة داخلًا وخارجًا هذا مع ما اختصت به دمشق من كثرة المدارس والأوقاف. ومن المساجد التي عدها

الحافظ منسوبة إلى أحد الصحابة مسجد أيمن بن خُريم[1] بن فاتك الأسدي الصحابي، ومسجد مروان بن الحكم ومسجد واثلة بن الأسقع، وفضالة بن عبيد الصحابي الأنصاري قاضي دمشق. ولتغير المعالم بها لا تعرف أسماء الأحياء التي ذكر أنها كانت فيها. قال ابن شاكر: وأما المساجد الخارجية عن البلد فمنها مسجد بين حجيرا وراوية (قبر الست) على قبر مدرك بن زياد ومسجد في راوية على أم كلثوم من أهل البيت، ومسجد كنان قبلي قذايا، قرية كانت قبلي مقابر اليهود فخربت، ومسجد في مقبرة باب توماء عند النهر المجدول بقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد؛ لأنه صلى به وقت الحصار، ومسجد يعرف بمسجد النبي في أرض المصيصة له منارة؛ والمصيصة قرية كانت عامرة فخربت شرقي بيت لهيا، ومسجد عند بيت أبيات يعرف بمسجد آدم، ومسجد معاوية من أرض قَيْنِية على طريق المزة وداريا، ومسجد الحجر ويعرف بمسجد النارنج قرب المصلى، ومسجد القدم عند القطائع بقرب عالية وعويلية قديم له منارة.

ولقد كانت مساجد الغوطة عامرة كلها إلى دخول العثمانيين، ثم أخذت تخرب في عهدهم، فقد كان في كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، وعشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الأخيرة فذهبت معها الجوامع بالطبيعة. ومن القرى التي مرت بنا وذهب اسمها ورسمها راوية وفذايا والمصيصة وبيت ليها وبيت أبيات وقينية وعالية وعويلية والنيرب والربوة. ولقد كان في الربوة عدة مساجد ومدارس. وفي تاريخ الصالحية أن المقاصف كانت تعمر عمائرها

---

(١) لا يؤيد التاريخ بعض قبور الصحابة والمساجد المنسوبة إليهم. وعن الحافظ عبد الغني قال: لم يتفق المسلمون على معرفة قبر نبي وصحابي غير قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

للنزهة من غير طين، والعمائر المكلفة كانت للمدارس والجوامع وأن قاعة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين في الربوة قد بناها على شعب الجبل، سقفها نهر يزيد، وأساسها نهر ثورا من المقامات التي لا تدرك. قال: وبقي بعد الألف من هذا المسجد المئذنة وأثر العمار ثم دثر.

وكان بالنيرب تسعة مساجد عدها ابن عبد الهادي، والآن ليس فيها أثر لمسجد ولا لقرية. وكان في القابون الفوقاني ثلاثة مساجد وبالقابون التحتاني ثلاثة، وليس فيهما الآن سوى مسجد واحد حقير. وهكذا مساجد قرى الغوطة والمرج وقلمون فإنها كلها ليست ذلت شأن، ومن أجملها اليوم جامع التل وعربيل ودومة وداريا. ومما دثر مسجد خاتون في منتصف الطريق بين دمشق والمزة. كما دثرت مساجد المزة وكانت بضعة مساجد وجوامع، منها مسجد بناه ابن عنين الوزير الشاعر في القرن السابع، وفي هذا القرن أيضًا بنى بها الوزير صفي الدين بن شاكر جامعًا، وهو الذي بلط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه وعمل الفوارة وبنى جامع حرستا. والجوامع والمساجد اليوم صورة من عمراننا، وعمراننا كان متراجعًا إلى عهد قريب، وهو اليوم آخذ بالتقدم فلا يبعد أن تقوم المساجد بعد الآن على قانون ينم عن حسن ذوق في البناء فيعيد الصورة القديمة مضمومة إلى التحسين الحديث.